كتاب المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله العزيز الحليم
الرؤف الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم هو اشهد ان لا اله الا
الله وحده لا شريك له رب السموات والارض وما بينهما ورب العرش
الكريم واشهد ان محمدا عبده ورسوله المخصوص بالاصطفاء والتكريم صلى الله
عليه وعلى اله اولي الفضل الجسيم وبعد فهذه اوراق ترجمت فيها الشيخ الامام شيخ الاسلام
ولي الله تعالى محيي الدين ابا زكريا النووي رحمه الله وذكرت فيها بعض مناقبه الشريفة
وسميتها المنهاج السوي في ترجمة الامام النووي فاقول وبالله التوفيق هو الامام ابو زكريا
محيي الدين بن شرف بن مري بضم الميم وكسر الراء كما رايته مضبوطا بخط اشياخه
بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام بكسر الحاء المهملة وبالزاي المعجمة الحزامي
النووي ثم الدمشقي محرر المذهب ومهذبه ومحققه ومرتبه امام اهل عصره
علما وعبادة وسيادة وانه ورعا وسيادة العلم المفرد فدونه واسطه الدر والعقد
السراج الوهاج فعنده يخفى الكوكب الازهر عابد العلما وعالم العباد وزاهد
المحققين ومحقق الزهاد لم تسمح بعد التابعين بمثله اذن ولم ترما بدانيه
عين وجمع له من العلم والعبادة محكم النوعين راقب الله في سره وجهره ولم
يبرح طرفة عين عن امتثال امره ولم يضيع من عمره ساعة في غير طاعة مولاه
الى ان صار قطب عصره وحوى من الفضل ما حواه وبلغ ما تواه ولم يبلغ له
من ناواه واذا الفتى لله اخلص سره فعليه منه رداء طيب يظهر
واذا الفتى جعل الاله مراده فلذكره عرف ذكي ينشر اثنى عليه الموافق
والمخالف وقبل كلامه النائي والالف وشاع ثناه الحسن بين المذاهب و
نشرت له راية تخفق في المشارق والمغارب من سلك منهاجه ايقن بروضة
فطوفها

صورة الورقة الأولى من المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي

قال الشيخ في التهذيب قدمن الله الكريم علينا أن جعل لنا رواية متصلة وسببا
متعلقا بخليله ابراهيم صلى الله عليه وسلم اخبرني ابو الفضل محمد بن عمر انا ابو
اسحاق التنوخي انا الحافظ ابو عبد الله الذهبي انا علي بن ابراهيم بن العطار
انا يحيى بن شرف الفقيه انا خالد بن يوسف ح وكتب الي عاليا بثلاث درجات
ابو عبد الله الحلبي عن الصلاح بن ابي عمر عن ابي الحسن ابن البخاري قالا انا ابو
اليمن الكندي انا المبارك بن الحسين انا علي بن احمد انا محمد بن عبد الرحمن
حدثنا عبد الله بن شيبان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن انس قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم من طلب الشهادة صادقا من قلبه اعطيها ولو لم تصبه
اخرجه مسلم وقد ختمنا بهذا الحديث كتابنا رجاء ان يختم لنا بالشهادة
وان يجعلنا من الذين لهم الحسنى وزيادة
وهذا اخر والله اعلم وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى اله
وصحبه اجمعين
وسلم

صورة الورقة الأخيرة من المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهاج السوي في ترجمة الامام النووي

الحمد لله العزيز الحكيم ، الرؤوف الرحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش الكريم . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، المخصوص بالاصطفاء والتكريم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي الفضل الجسيم .

هذه أوراق ترجمت[1] فيها الشيخ الإمام ، شيخ الإسلام ، ولي الله تعالى : محيي الدين أبا زكريا النووي ، رحمه الله ذكرت فيها بعض مناقبه الكريمة ، وسميتها : المنهاج السوي ، في ترجمة الإمام النووي » فأقول :

هو الإمام أبو زكريا محيي الدين ، يحيى بن شرف بن مري بضم الميم ، وكسر الراء ، كما رأيته مضبوطاً بخطه ـ ابن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام ـ بكسر الحاء المهملة ، وبالزاي المعجمة ـ الحزامي ، النووي ، ثم الدمشقي .

---

(١) انظر ترجمته في :
ابن قاضي شهبة ٢/١٥٣ ـ الأعلام ٩/١٨٤ .
ابن السبكي ٨/٣٩٥ ـ البداية والنهاية ١٣/٢٧٨ .
النجوم الزاهرة ٧/٢٧٨ ـ الدارس في تاريخ المدارس ١/٢٤ .
آداب اللغة ٣/٢٤٢ ـ شذرات الذهب ٥/٣٥٤ .
ابن هداية الله ٢٢٦ ـ هادي المسترشدين ـ ص ٤٧١ .
تذكرة الحفاظ ٥/٣٥٤ ـ مرآة الجنان ٤/١٨٢ .
السلوك ١/٦٤٨ ـ طبقات الإسنوي ٢/٢٦٦ .
العبر ٥/٣١٢ ـ ٣١٣ .

محرر المذهب ومهذبه ، ومحققه ومرتبه ، امام أهل عصره علماً وعبادة ، وسيد أوانه ورعاً وسيادة ، العلم الفرد ، فدونه واسطة الدر والجوهر ، السراج الوهاج فعنده يخفى الكوكب الأزهر ، عابد العلماء وعالم العباد ، وزاهد المحققين ومحقق الزهاد . لم تسمع بعد التابعين بمثله أذن ، ولم تر ما يدانيه عين ، وجمع له في العلم والعبادة محكم النوعين . راقب الله في سره وجهره ، ولم يبرح طرفة عين عن امتثال أمره ، ولم يضيع من عمره ساعة في غير طاعة مولاه ، إلى أن صار قطب عصره ، وحوى من الفضل ما حواه ، وبلغ ما نواه ، فتشرفت به نواه ، ولم يلف له من ناواه .

وإذا الفتى لله أخلص سره فعليه منه رداء طيب يظهر
وإذا الفتى جعل الاله مراده فلذكره عرف ذكي ينشر

أثنى عليه الموافق والمخالف ، وقبل كلامه النائي والآلف ، وشاع ثناوه الحسن بين المذاهب ، ونشرت له راية مجد تخفق في المشارق والمغارب من سلك منهاجه أيقن بروضة قطوفها دانية ، ومن تتبع آثاره فهو مع الصالحين في رياض عيونها جارية ومن لزم اذكاره ومهذب أخلاقه ، فالخير فيه مجموع ، ومن استقى من بحره ظفر بأروى وأصفى ينبوع ، فيه ثبت الله أركان المذهب والقواعد ، وبين مهمات الشرع والمقاصد ، فطابت منه المصادر والموارد ، وعذبت مناهله للصادر والوارد .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وقال فيه الشيخ تاج الدين السبكي في طبقاته : أستاذ المتأخرين ، وحجة الله على اللاحقين ، ما رأت الأعين أزهد منه في يقظة ولا منام ، ولا عاينت أكثر اتباعاً منه لطرق السالفين من أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، له التصانيف المفيدة ، والمناقب الحميدة ، والخصال التي جمعت طارف كل فضل وتليده ، والورع الذي به خرب دنياه وجعل دينه معموراً ، والزهد الذي كان به يحيا سيداً وحصوراً ،هذا إلى قدر في العلم لو أطل على المجرة لما ارتضى شرباً في اعطانها ، أو جاور الجوزاء لما استطاب مقاماً في أوطانها ، أو حل في دارة الشمس لأنف من مجاورة سلطانها ، وطالما فاه بالحق لا تأخذه لومة لائم ، ونادى بحضرة الأسود الضراغم ، وصدع بدين الله تعالى مقال ذي سريرة ، يخاف يوم تبلى السرائر ، ونطق معتصماً بالباطن والظاهر ، غير ملتفت إلى الملك الظاهر ، وقبض على دينه والجمر

ملتهب ، وصمم على مقاله والصارم للأرواح منتهب ، لم يزل ـ رحمه الله ـ طول عمره على طريق أهل السنة والجماعة ، مواظباً على الخير لا يصرف ساعة في غير طاعة .

وقال ابن فضل الله في المسالك : شيخ الإسلام ، وعلم الأولياء ، قدوة الزهاد ورجل علم وعمل ، ونجاح سؤل وأمل ، وكامل قل مثله في الناس من كمل ، وفق للعلم وسهل عليه ، ويسر له وسير إليه ، من أهل بيت من نوى من كرام القرى ، وكرامة أهل القرى ، لهم بها بيت مضيف لا تخمد ناره ، ودار قرى لا يخمل مناره ، طلع من أمم سادات ، وجمع لكرمهم عادات ، وجمع لهممهم أطراف السعادات ، ونبت فيهم نباتاً حسناً ، ونبغ ذكاء ولسناً ، وأتى دمشق متلقياً للأخذ من علمائها ، متقللاً من عيشها ، حتى كاد يعف فلا يشرب من مائها ، فنبه ذكره ، ونهب مدى الآفاق شكره ، وحلا اسمه ، وذكر تصنيفه وعلمه . فلما توسد الملك الظاهر امانيه وحدثته نفسه من الظلم بما كاد يأتي قواعده من مبانيه ، وكتب له من الفقهاء من كتب ، وحمله سوء رأيه على بيع آخرته بشيء من الذهب ولم يبق سواه فلما حضر هابه ، وألقى إليه الفتيا ، فألقاها وقال لقد أفتوك بالباطل ، ليس لك أخذ معونة ، حتى تنفد أموال بيت المال ، وتعيد أنت ونساؤك ومماليكك وأمراؤك ما أخذتم زائداً عن حقكم ، وتردوا فواضل بيت المال إليه . وأغلظ له في القول ، فلما خرج قال : اقطعوا وظائف هذا الفقيه ورواتبه ، فقيل : إنه لا وظيفة له ، ولا راتب ، قال : فمن أين يأكل ؟ قالوا مما يبعث إليه أبوه فقال : والله لقد هممت بقتله ، فرأيت كأن أسداً فاتحاً فاه بيني وبينه ، لو عرضت له لالتقمني ثم وقر له في صدره ما وقر ، ومد له يد المسالمة يسأله وما افتقر .

ثم كانت سمعة النواوي التي شرقت وغربت ، وبعدت وقربت ، وعظم شأن تصانيفه ، وبان البيان في مطاوي تآليفه ، ثم هي اليوم محجة الفتوى ، وعليها العمل ، وما ثم سوى سببها الأقوى .

وقال تلميذه الشيخ علاء الدين بن العطار في ترجمته التي جمعها له : أوحد عصره ، وفريد دهره . الصوام القوام ، الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، صاحب الأخلاق الرضية ، والمحاسن السنية ، العالم الرباني المتفق على علمه

وإمامته وجلالته ، وزهده ، وورعه وعبادته ، وصيانته في أقواله وأفعاله وحالاته له الكرامات الواضحة ، والمؤثر نفسه وماله للمسلمين ، والقائم بحقوقهم وحقوق ولاة أمورهم بالنصح والدعاء في العالمين .

ولد في العشر الأوسط من المحرم سنة احدى وثلاثين وستمائة ، بنوى قال ابن العطار . ودكر لي بعض الصالحين الكبار ، أنه ولد وكتب من الصادقين ، ونشأ بها وقرأ القران ، فلما بلغ سبع سنين ، وكانت ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان . قال والده : وكان نائماً إلى جنبي ، فانتبه نحو نصف الليل وايقظني وقال : يا ابت ، ما هذا النور الذي قد ملأ الدار ؟ فاستيقظ أهله جميعاً ، ولم نر شيئاً فعرفت أنها ليلة القدر .

ولما بلغ عشر سنين ، وكان بنوى الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي من أولياء الله تعالى ، فرآه والصبيان يكرهونه على اللعب معهم ، وهو يهرب منهم ويبكي لإكراههم ، ويقرأ القرآن في تلك الحال ، قال : فوقع في قلبي محبته وجعله أبوه في دكان ، فجعل لا يشغل بالبيع والشراء عن القرآن . قال الشيخ ياسين : فأتيت الذي يقرئه القرآن ، فوصيت به ، وقلت له هذا الصبي يرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم ، وينتفع الناس به ، فقال امنجم أنت ؟ فقال لا ، وإنما انطقني الله بذلك فذكر ذلك لوالده ، فحرص عليه إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الاحتلام .

قال ابن العطار : قال الشيخ : فلما كان عمري تسع عشرة سنة ، قدم بي والدي إلى دمشق سنة تسع وأربعين ، فسكنت المدرسة الرواحية ، وبقيت نحو سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض ، وكان قوتي فيها جراية المدرسة لا غير . قال : وحفظت التنبيه في أربعة أشهر ونصف وحفظت ربع المهذب في باقي السنة قال : ولما قرأت قول التنبيه : يجب الغسل من ايلاج الحشفة ، كنت أظن أنها قرقرة الجوف ، فقعدت مدة اغتسل منها بالماء البارد ، حتى تشقق ظهري قال : وجعلت أشرح وأصحح على شيخنا الإمام العالم ، الزاهد الورع ، أبي إبراهيم إسحاق بن أحمد بن عثمان ، المغربي الشافعي ، ولازمته فأعجب بي لما رأى من اشتغالي وملازمتي وعدم اختلاطي بالناس ، وأحبني محبة شديدة ، وجعلني أعيد الدرس في حلقته لأكثر الجماعة .

قال : فلما كانت سنة إحدى وخمسين ، حججت مع والدي ، وكانت وقفة الجمعة ، وكانت رحلتنا من أول رجب ، فأقمت بمدينة النبي ﷺ نحواً من شهر ونصف .

قال والده : ولما توجهنا للرحيل من نوى ، أخذته الحمى ، إلى يوم عرفة قال ولم يتأوه قط . فلما عدنا إلى نوى ، ونزل إلى دمشق صب الله عليه العلم صباً فلم يزل يشتغل بالعلم ، ويقتفي آثار شيخه أبي إبراهيم إسحاق في العبادة ، من الصلاة وصيام الدهر والزهد والورع ، فلما توفي شيخه ازداد اشتغاله بالعلم والعمل .

وحج مرة أخرى ، قال ابن العطار : وقال لي شيخنا القاضي أبو المفاخر محمد بن عبد القادر الأنصاري : لو أدرك القشيري صاحب الرسالة شيخكم وشيخه ، لما قدم عليهما في ذكره لمشائخها أحداً ، لما جمع فيهما من العلم والعمل ، والزهد والورع ، والنطق بالحكمة ، وغير ذلك .

قال : وذكر لي الشيخ قال : كنت أقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً ، درسين في الوسيط ودرساً في المهذب ، ودرساً في الجمع بين الصحيحين ، ودرساً في صحيح مسلم ، ودرساً في اللمع لابن جني ، ودرساً في إصلاح المنطق لابن السكيت في اللغة ودرساً في التصريف ، ودرساً في أصول الفقه ، ودرساً في أسماء الرجال ، ودرساً في أصول الدين .

وقال : وكنت اعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة ، وضبط لغة . قال : وبارك الله لي في وقتي واشتغالي وأعانني عليه . . قال : وخطر لي الاشتغال بعلم الطب ، فاشتريت القانون وعزمت على الاشتغال بشيء ، ففكرت في أمري ، ومن أين دخل عليّ الداخل ، فألهمني الله تعالى أن سببه اشتغالي بالطب ، فبعت في الحال الكتاب المذكور ، وأخرجت من بيتي كل ما يتعلق بالطب ، فاستنار قلبي ، ورجع إلي حالي ، وعدت إلى ما كنت عليه أولاً .

قال: وكنت مريضاً بالمدرسة الرواحية، فبينما أنا في بعض الليالي في الصفة الشرقية منها ، ووالدي واخوتي وجماعة من أقاربي نائمون إلى جنبي ، إذ نشطني الله تعالى وعافاني من الحمى ، فاشتاقت نفسي إلى الذكر ، فجعلت أسبح ، فبينا أنا كذلك بين الجهر والاسرار ، إذا شيخ حسن الصورة جميل المنظر ، يتوضأ على حافة

البركة وقت نصف الليل أو قريب منه ، فلما فرغ من وضوئه أتاني وقال لي يا ولدي ، لا تذكر الله تعالى تشوش على والدك واخوتك وأهلك ومن في هذه المدرسة ، فقلت : يا شيخ ، من أنت ؟ فقال ، أنا ناصح لك ، ودعني أكون من كنت ، فوقع في نفسي أنه إبليس ، فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ورفعت صوتي بالتسبيح ، فأعرض عني ومشى إلى ناحية باب المدرسة ، فأنبهت والدي والجماعة على صوتي فقمت إلى باب المدرسة فوجدته مقفلاً ، وفتشتها فلم أجد فيها أحداً غير من كان فيها ، فقال لي والدي : يا يحيى ، ما خبرك ؟ فأخبرته الخبر ، فجعلوا يتعجبون ، وقعدنا كلنا نسبح ونذكر .

قال ابن العطار : نقلت من خط الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه قرأ على :

* القاضي أبي الفتح عمر بن بندار التفليسي المنتخب للرازي ، وقطعة من المستصفى وغير ذلك .

* وعلى فخر الدين المالكي اللمع لابن جني .

* وعلى أبي العباس أحمد بن سالم المصري ، النحوي إصلاح المنطق في اللغة ، بحثاً ، وكتاباً في التصريف قال : وكان لي عليه درس ، اما في سيبويه أو غيره ـ الشك مني .

* وعلى الإمام جمال الدين بن مالك ، كتاباً من تصانيفه ، وعلق عليه أشياء كثيرة .

* وعلى أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادي صحيح مسلم شرحاً ، ومعظم البخاري ، وقطعة من الجمع بين الصحيحين للحميدي .

* وقرأ على جماعة من أصحاب ابن الصلاح علوم الحديث له .

* وعلى أبي البقاء خالد ين يوسف النابلسي الكمال في أسماء الرجال للحافظ عبد الغني وعلق عليه حواشي ، وضبط عنه أشياء حسنة .

* وأخذ النفقة عن شيخه إسحاق المغربي ، وكان يتأدب معه كثيراً ، ويملأ الإبريق ويحمله معه إلى الطهارة .

* وأخذ عن الكمال سلار بن الحسن الاربلي .

* وعن الإمام عبد الرحمن بن نوح المقدسي .
* وأبي حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربعي الاربلي .
* وسمع الحديث عن أبي الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر المقدسي .
* وإسماعيل بن أبي اليسر .
* وأبي العباس بن عبد الدائم .
* وخالد النابلسي .
* وعبد العزيز بن محمد بن عبد الحسن الأنصاري .
* والضياء ابن تمام الحنفي .
* والحافظ أبي الفضل البكري .
* وأبي الفضائل عبد الكريم بن عبد الصمد ، خطيب دمشق .
* وعبد الرحمن بن سالم الأنباري .
* وأبي زكريا يحيى بن أبي الفتح الصيرفي .
* وإبراهيم بن علي الواسطي . وغيرهم .

ومن مسموعاته : الكتب الستة ، والموطأ ، ومسانيد : الشافعي وأحمد ، والدارمي ، وأبي عوانة ، وأبي يعلى وسنن الدارقطني ، والبيهقي ، وشرح السنة للبغوي ، وتفسيره ، والأنساب للزبيري ، والخطب النباتية ، ورسالة القشيري ، وعمل اليوم والليلة لابن السني ، وأدب السامع والراوي للخطيب ، وغير ذلك .

وسمع منه خلق من العلماء الحفاظ ، والصدور والرؤساء ، وتخرج به خلق كثير من الفقهاء ، وسار علمه وفتاويه في الآفاق وانتفع الناس في سائر البلاد الإسلامية بتصانيفه ، وأكبوا على تحصيلها .

قال ابن العطار : وذكر لي أنه كان لا يضيع وقتاً في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم ، حتى في ذهابه في الطريق ومجيئه ، يشتغل في تكرار ومطالعة ، وأنه بقي على التحصيل على هذا الوجه نحو ست سنين ، ثم اشتغل بالتصنيف والاشتغال والافادة ، والمناصحة للمسلمين وولاتهم ، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه والعمل بدقائق الفقه والاجتهاد على الخروج من خلاف العلماء وإن

كان بعيداً ، والمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشوائب ، يحاسب نفسه على الخطوة بعد الخطوة .

وكان محققاً في علمه وفنونه ، مدققاً ، حافظاً لحديث رسول الله ﷺ ، عارفاً بأنواعه كلها ، وغريبه ومعانيه ، واستنباط فقهه ، حافظاً لمذهب الشافعي وقواعده ، وأصوله وفروعه ، ومذاهب الصحابة والتابعين ، واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم ، سالكاً طريق السلف ، قد صرف أوقاته كلها في الخير ، فبعضها للتأليف وبعضها للتعليم وبعضها للصلاة ، وبعضها للتلاوة والتدبير وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال الكمال الأدفوي في البدر السافر ونوزع مرة في النقل عن الوسيط فقال : أتنازعوني وقد طالعته أربعمائة مرة ؟ قال : وواقف الملك الظاهر بيبرس لما ورد دمشق في أمور ، فظن أنه من أصحاب الوظائف ليعزله ، فذكر له حاله فقال : وكان بعد ذلك يقول إني أفزع منه .

قال ابن العطار : وذكر لي أبو عبد الله بن أبي الفتح البعلي ، الحنبلي ، العلامة ، قال : كنت ليلة في جامع دمشق والشيخ واقف يصلي إلى سارية في ظلمة ، وهو يردد قوله تعالى : وقفوهم انهم مسؤولون مراراً ، بحزن وخشوع ، حتى حصل ، عندي من ذلك ما الله به عليم .

وكان إذا ذكر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام ، وذكر مناقبهم .

قال : وأخبرني الشيخ القدوة المسلك ، ولي الدين أبو الحسن ، المقيم بجامع بيت لهيا ، قال مرضت بالنقرس في رجلي فعادني الشيخ محيي الدين ، فلما جلس عندي ، جعل يتكلم في الصبر ، فكلما تكلم جعل الألم يذهب قليلاً ، حتى زال ، فعرفت أنه من بركته .

وكان لا يدخل الحمام ، ولا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعد العشاء ، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السحر ، ولا يشرب المبرد ، أي الملقى فيه الثلج ولم يتزوج .

قال ابن العطار : وأخبرني العلامة رشيد الدين الحنفي ، قال عذلت الشيخ في تضييق عيشه ، وقلت له أخشى عليك مرضاً يعطلك عن أشياء أفضل مما تقصده ، فقال : إن فلاناً صام وعبد الله حتى اخضر عظمه قال : فعرفت أنه ليس له غرض في المقام في هذه الدار ، ولا يلتفت إلى ما نحن فيه .

قال : ورأيت رجلاً من أصحابه قشر خيارة ليطعمه إياها ، فامتنع من أكلها وقال أخشى أن ترطب جسمي وتجلب النوم قال الادفوي في البدر السافر : حكى لي قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة ، أنه سأله عن نومه فقال : إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وأنتبه .

قال : وحكى لي أيضاً أنه كان إذا أتى إليه ليزوره يضع بعض الكتب على بعض ، ليوسع له موضعاً يجلس فيه قال : وكان لا يجمع بين أدمين ، ولا يأكل اللحم إلا عندما يتوجه إلى نوى .

قال : وحكى عنه قاضي القضاة جمال الدين الزرعي : أنه كان يتردد إليه وهو شاب قال : فجئت إليه في يوم عيد ، فوجدته يأكل حريرة مدخنة فقال سليمان : كل ، فلم يطب له ، فقام أخوه وتوجه إلى السوق واحضر شوياً وحلوى ، وقال له : كل فلم يأكل ، فقال يا أخي أهذا حرام ؟ فقال : لا ، ولكنه طعام الجبابرة .

قال ابن العطار : وكان لا يأكل فاكهة دمشق ، فسألته عن ذلك فقال : دمشق كثيرة الأوقاف ، وأملاك من هو تحت الحجر والتصرف ، لا يجوز إلا على وجه الغبطة ، والمعاملة فيها على وجه المساقاة ، وفيها خلاف بين العلماء ، ومن جوزها شرط الغبطة ، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك ، فكيف تطيب نفسي بأكل ذلك ؟

قال : وقال لي الشيخ العارف المحقق ، أبو عبد الرحيم محمد الاخميمي : كان الشيخ محيي الدين سالكاً منهاج الصحابة ولا أعلم أحداً في عصرنا سالكاً منهاجهم غيره .

قال : وكتب شيخنا أبو عبد الله محمد بن الظهير الاربلي ، الحنفي ، شيخ الأدب في وقته تصحيح التنبيه ، ليكون له عنه رواية ، فلما فرغ منه قال لي ما وصل

ابن الصلاح إلى ما وصل إليه الشيخ من الفقه والحديث واللغة ، وعذوبة اللفظ والعبارة وقال الاسنوي : كان يلبس ثوباً قطناً وعمامة سختيانية ، وكان في لحيته شعرات بيض ، وعليه سكينة ووقار ، في حال البحث وغيره .

وقال الشيخ تقي الدين السبكي : ما اجتمع بعد التابعين المجموع الذي اجتمع في النووي .

ورأيت في مجموع بخط الشيخ شمس الدين العيزري الشافعي ، أن بواب الرواحية حكى قال: خرج الشيخ في الليل فتبعته، فانفتح له الباب من غير مفتاح، فخرج ، ومشيت معه خطوات ، فإذا نحن بمكة ، فأحرم الشيخ وطاف وسعى ، ثم طاف إلى أثناء الليل ، ورجع ، فمشيت خلفه ، فإذا نحن بالرواحية .

قال الذهبي : وتولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بعد موت أبي شامة ، سنة خمس وستين ، وفي البلد من هو أسن منه وأعلى سنداً ، فلم يأخذ من معلومها شيئاً إلى أن مات .

قال ابن العطار : وأقرأ بها بحثاً وشرحاً : صحيح البخاري ، ومسلم ، وقطعة من أبي داود ، ورسالة القشيري وصفوة الصفوة ، والحجة على تارك المحجة لنصر المقدسي ، وغير ذلك .

قال: وذكر لي تلميذه أبو العباس بن فرج قال: كان الشيخ محيي الدين قد صار إليه ثلاث مراتب ، كل مرتبة منها لو كانت لشخص لشدت إليه آباط الإبل من أقطار الأرض . المرتبة الأولى : العلم والقيام بوظائفه ، الثانية : الزهد في الدنيا . الثالثة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال : وأخبرني الشيخ الصدوق أبو القاسم المزي ـ وكان من الأخيار ـ أنه رأى في النوم بالمزة رايات كثيرة ، وطبلاً يضرب قال فقلت : ما هذا ؟ فقيل لي : الليلة قطب يحيى النووي ، فاستيقظت من منامي ، ولم أكن أعرف الشيخ ولا سمعت به قبل ذلك ، فدخلت دمشق في حاجة ، فذكرت ذلك لشخص فقال : هو شيخ دار الحديث ، وهو الآن جالس فيها، فدخلتها ، فلما وقع بصره علي نهض إلى جهتي ، وقال : اكتم ما معك ولا تحدث به أحداً ، ثم رجع إلى موضعه .

ورأيت في الدرر الكامنة لشيخ الإسلام ، حافظ العصر أبي الفضل بن حجر ، قال الشيخ محيي الدين لتلميذه الشيخ شمس الدين بن النقيب : يا شيخ شمس الدين ، لا بد أن تلي الشامية البرانية ، فما مات حتى وليها .

ورأيت فيها عن بعضهم قال : توجهت لزيارة الشيخ فرج الصفدي الزاهد ، فجرت مسألة النظر إلى الأمرد ، وأن الرافعي حرمه بشرط الشهوة ، والنووي يقول : يحرم مطلقاً ، فقال الشيخ فرج : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي : الحق في هذه المسألة مع النووي .

وكان الشيخ محيي الدين إذا جاءه أمرد ليقرأ عليه ، امتنع ، وبعث به إلى الشيخ أمين الدين الحلبي ، لعلمه بدينه وصيانته .

وقال الشيخ تاج الدين السبكي في الترشيح : وافق الوالد مرة وهو راكب على بغلته شيخاً عامياً ماشياً ، فتحادثا ، فوقع في كلام ذلك الشيخ أنه رأى النووي ففي الحال نزل عن بغلته وقبل يد ذلك الشيخ العامي ، وسأله الدعاء ، وقال له : اركب خلفي فلا اركب وعين رأت وجه النووي تمشي بين يدي .

قال : وكان الوالد سكن دار الحديث الأشرفية ، وكان يخرج في الليل يتهجد ، ويمرغ خديه على الأرض فوق البساط الذي يقال : إنه من زمن الواقف ، ويقال إن النووي كان يدرس عليه ، وينشد :

وفي دار الحديث لطيف معنى ... على بسط لها اصبو وآوي
عسى اني أمس بحر وجهي ... مكاناً مسه قدم النواوي

من أخذ عنه : منهم :

* الشيخ علاء الدين بن العطار .
* والشيخ شمس الدين بن النقيب .
* والعلامة شمس الدين بن جعوان .
* والشيخ شمس الدين بن القماح .
* والحافظ جمال الدين المزي .
* وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة .

* والعلامة رشيد الدين الحنفي .
* والمحدث أبو العباس بن فرح الاشبيلي . وخلائق غيرهم .

قال الشيخ جمال الدين الاسنوي في أوائل المهمات : اعلم ان الشيخ محيي الدين ـ رحمه الله ـ لما تأهل للنظر والتحصيل ، رأى من المسارعة إلى الخيرات أن جعل ما يحصله ويقف عليه ، تصنيفاً ينتفع به الناظر فيه ، فجعل تصنيفه تحصيلاً ، وتحصيله تصنيفاً ، وهو غرض صحيح ، وقصد جميل ، ولولا ذلك لم يتيسر له من التصانيف ما تيسر له . وأما الرافعي فإنه سلك الطريقة العالية ، فلم يتصد للتأليف إلا بعد كمال انتهائه ، وكذا ابن الرفعة ، رحمة الله عليهم أجمعين ، ونفعنا بهم .

وقال الأذرعي في أول التوسط والفتح بلغني أن الشيخ محيي الدين كان يكتب إلى أن يعيى فيضع القلم يستريح وينشد :

تشوقت ليلى حين فارقت أرضها فقلت ، وعيني عند ذلك تدمع
لئن كان هذا الدمع يجري صبابة على غير سعدى ، فهو دمع مضيع

وذكر ابن العطار في تأليف له في الشعر : أن الشيخ لم ينظم شعراً قط . فمن تصانيفه :

الروضة : مختصر الشرح الكبير للرافعي ، وهو بخطه ، في أربع مجلدات ضخمات ، مائة كراس ، وتقع غالباً في ستة مجلدات وثمانية . ورأيت بخطه فيها أنه ابتداء في تأليفها يوم الخميس ، الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة ، وختمها يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وستين وهي عمدة المذهب الآن ، وفيها يقول الاسنوي في المهمات : وكانت أنفس ما تأثر من تصانيفه ببركات أنفاسه ، وثمرة من ثمرات غراسه ، غرس فيها أحكام الشرع ولقحها ، وضم إليها فروعاً كانت منتشرة فهذبها ونقحها ، فلذلك حلا ينبوعها ، وبسقت فروعها ، وطابت أصولها ، ودنت قطوفها ، إلى أن قال : وتلك منقبة قد أطاب الله ذكرها وسناها ، وموهبة قد رفع سمكها وبناها ، ومن أسر سريرة حسنة ، ألبسه الله رداها .

وفي الجواهر : فإن الروضة لما جمعت اشتات المذهب ، وقطعت أسباب غلق

المطلب لاشتمالها على أحكام الشرح الكبير واختصاصها بزيادات يحجم عنها الكثير ، وردت من قبول الكافة مورداً لا صدر منه لبعض ، وعقدت لوقوفهم عند حكمها موثقاً فلن تبرح الأرض ، فلذلك تمسكوا بفروعها وأغصانها ، وتعلقوا بأصولها وأقيالها ، حتى صارت منزل قاصدهم ، ومنهل واردهم وقد استدرك فيها على الإمام الرافعي في التصحيح مواضع جمة ، وزاد عليه مسائل وقيوداً وشروطاً ، وقد أفرد بعضهم زياداتها في مجلدين لطيفين .

وقد ذكر الأذرعي في التوسط أنه هم قبل موته بغسلها ، فقيل له سارت بها الركبان ، فقال: في نفسي منها أشياء وقد أكثر الناس من الكتابة عليها ، والكلام على مواضع وتصحيحات فيها ظاهرها التناقض ، ومواضع فيها مخالفة لما في الشرح كالإسنوي ، والاذرعي ، والبلقيني ، والزركشي ، وغيرهم .

وقد ذكر أن سبب ما وقع فيها مخالفاً للشرح : أنه اختصرها من نسخة منه سقيمة ، مع أنه بحمد الله أجيب عن كثير مما زيفوه وجمع بين غالب ما زعموا تناقضه . وقد شرعت في تلخيص أحكامها من غير ذكر الخلاف ، وضممت إليها زيادات شرح المهذب وبقية تصانيفه وتصانيف من بعده ، كابن الرفعة ، والسبكي ، والإسنوي ، ووصلت فيه الآن إلى . . . . أعان الله على إتمامه .

ومنها شرح صحيح مسلم ، سماه بـ المنهاج قريب من حجم الروضة .

وشرح المهذب ، سماه بـ الجموع وقد وصل فيه ـ قال ابن العطار ـ إلى باب المصراة ، وقال الاسنوي : إلى أثناء الربا وهو قدر الروضة مرة ونصف أو هو أكثر ، وقد ذكر في خطبته : أنه كتب قبل ذلك شرحاً مبسوطاً جداً وصل فيه إلى أثناء الحيض ، في ثلاث مجلدات ضخمات ، ثم رأى أن ذلك يكون سبب قلة الانتفاع في الخطبة إلا هذا الشرح .

قال الإسنوي : وهذا الشرح من أجل كتبه وأنفسها ، وكلامه فيه يدل على أنه اطلع على أنه يموت قبل إتمامه ، فإنه يجمع النظائر في موضع ويقول فعلنا ذلك فلعلنا لا نصل إلى محله .

وقال ابن العطار : كتب لي ورقة فيها أسماء الكتب التي كان يجمعه منها ،

وقال إذا انتقلت إلى الله فأتمه من هذه الكتب وقد شرع في تكميله جماعة ولم ينهوه ، فكتب الشيخ تقي الدين السبكي من الموضوع الذي انتهى إليه إلي أثناء التفليس ، وفي خطبة تكملته يقول واصفاً هذا الشرح : وبعد : فقد رغب إليّ بعض الأصحاب في أن أكمل شرح المذهب للشيخ الإمام العلامة علم الزهاد ، وقدوة العباد ، واحد عصره ، وفريد دهره ، محيي علوم الأولين ، ومهذب سنن الصالحين ، أبي زكريا النووي وطالت رغبته إلي ، وكثر إلحاحه علي ، وأنا في ذلك أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، واستهون الخطب فرآه شيئاً امراً ، وهو في ذلك لا يقبل عذراً وأقول: قد يكون في تعرضي لذلك مع قصوري عن مقام هذا الشارح اساءة إليه ، وجناية مني عليه ، فأنى لي أن أنهض بما نهض به وقد أسعف بالتأييد ، وساعدته المقادير فقربت منه كل بعيد ؟ ولا شك أن ذلك يحتاج بعد الأهلية إلى ثلاثة أشياء :

فراغ البال ، واتساع الزمان ، وقد كان ـ رحمه الله ـ قد أوتي من ذلك الحظ الأوفر ، بحيث لم يكن له شاغل عن ذلك من نفس ولا أهل .

الثاني : جمع الكتب التي استعان بها على النظر والاطلاع على كلام العلماء ، وكان رحمه الله قد حصل له من ذلك حظ وافر ، لسهولة ذلك في بلده في ذلك الوقت .

الثالث : حسن النية ، وكثرة الورع والزهد ، والأعمال الصالحة التي أشرقت أنوارها ، وكان قد اكتال من ذلك بالمكيال الأوفى .

فمن يكون قد اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث ، أنى يضاهيه أو يدانيه من ليس فيه واحدة منها ، فنسأل الله أن يحسن نياتنا ، وأن يمدنا بمعونته وعونه ، وقد استخرت الله تعالى ، وفوضت الأمر إليه ، واعتمدت في كل الأمور عليه ، وقلت في نفسي لعل ببركة صاحبه ونيته يعينني الله ، انه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، فإن من الله تعالى بإكماله ، فلا شك من فضل الله ببركة صاحبه ونيته ، إذ كان مقصوده النفع للناس ممن كان ، انتهى .

ومنها المنهاج مختصر المحرر ، مجلد لطيف .

ودقائقه ، نحو ثلاث كراريس ، ورأيت بخطه أنه فرغ منه تاسع عشر شهر

رمضان سنة تسع وستين وهو الآن عمدة الطالبين والمدرسين والمفتين .

قال ابن العطار : وقال لي العلامة جمال الدين ابن مالك : والله لو استقبلت من أمري ما استدبرت ، لحفظته . وأثنى على حسن اختصاره ، وعذوبة ألفاظه .

قال : ووقف عليه في حياته العلامة رشيد الدين الفارقي ، شيخ الأدب فامتدحه بأبيات وقف عليها الشيخ وهي هذه :

اعتنى بالفضل يحيى فاغتنى ... عن بسيط بوجيز نافع
وتحلى بتقاه فضله ... فتحلى بلطيف جامع
ناصباً أعلام علم ، جازماً ... بمقال ، رافعاً للرافعي
فكأن ابن الصلاح حاضر ... وكأن ما غاب عنا الشافعي

وقال فيه الشيخ جمال الدين الاسنوي :

يا ناهجاً منهاج حبر ناسك ... دقت دقائق فكره وحقائقه
بادر لـ محيي الدين فيما رمته ... يا حبذا منهاجه ودقائقه

وينسب للشيخ تقي الدين السبكي :

ما صنف العلماء كالمنهاج ... في شرعة سلفت ، ولا منهاج
فاجهد على تحصيله متيقناً ... أن الكفاية فيه للمحتاج

ولبعضهم :

الشيخ محيي الدين هو القطب الذي ... طلعت شموس العلم من أبراجه
لا يرتقي أحد إلى شرف العلا ... إلا فتى يمشي على منهاجه

وقلت أنا :

للناس سبل في الهداية والهوى ... ما بين اصباح وليل داج
فإذا أردت سلوك سبل المصطفى ... حقاً ، فلا تعدل عن المنهاج

قلت : ومن جلالة هذا الكتاب ، أن الشيخ تاج الدين الفركاح ، كتب عليه تصحيحاً ، وهو في مرتبة شيوخ الشيخ محيي الدين ، فإنه لما جاء إلى دمشق ، واحضر إليه ليقرأ عليه ، فبعث به إلى الرواحية ، وأيضاً فإنه كان بينهما أخيراً مقاطعة ، كما ذكر ذلك الصلاح الصفدي في تذكرته ، وأنه لما توفي الشيخ

محيي الدين ، لم يحضر الشيخ تاج الدين الصلاة عليه .

ومن العجب أن الشيخ علاء الدين الباجي شيخ السبكي اختصر المحرر ، وسماه : التحرير ، ومولده سنة مولد الشيخ محيي الدين . وانظر ما بين المختصرين شهرة واعتمادا .

وقد كنت في أول اشتغالي رأيت الشيخ في النوم ، وكأني حضرت درسه ، فقلت له في شأن المنهاج والاعتراضات التي أوردت عليه ، فأخذ يصلح العبارة ، إلى أن خرج الكتاب عن هيئته ، فقلت له : يا سيدي ، اجعل هذا كتاباً على حدة غير المنهاج لأنه شرح وحفظ على تلك الهيئة ، ثم إنه ركب حماراً عالياً ، ومشيت خلفه مسافة يسيرة ، فأعطاني عمامته ، وفارقته ، فانتبهت .

ورأيته مرة أخرى فأنشدني :

من شاحح العالم في كلامه ليذهبن رونق انتظامه

فاستيقظت وأنا أحفظه :

ومنها : تهذيب الأسماء واللغات مجلدان ضخمان ، ويقع غالباً في أربعة قال الإسنوي : وقد مات عنه مسودة ، وبيضه الحافظ جمال الدين المزي . وفي هذا شيء ، فقد وقفت على المجلد الأول بخطه مبيضاً بالخزانة المحمودية ، لكن فيه بياضات يسيرة .

ورياض الصالحين مجلد .

والأفكار مجلد .

ونكت التنبيه ، مجلد ، وتسمى : التعليقة ، وقال الإسنوي :

وهي من أوائل ما صنف ، ولا ينبغي الاعتماد على ما فيها من التصحيحات المخالفة لكتبه المشهورة ، ولعله جمعها من كلام شيوخه . وما استفدته منها في قص الأظفار ، أنه يسن البداءة بمسبحة اليد اليمنى ، ثم بالوسطى ، ثم البنصر ، ثم الخنصر ثم خنصر اليسرى ولاء إلى الابهام ، ثم يختم بابهام اليمنى .

وفي الرجل يبدأ بخنصر اليمنى ، ويختم بخنصر اليسرى ولاء . وذكر لذلك حديثاً ومعنى لطيفاً ذكرته في دقائق مختصر الروضة .

والايضاح مناسك الحج ، مجلد لطيف .

والايجاز فيه .

والمناسك الثالث والرابع والخامس .

والتبيان في أدب حملة القرآن ، مجلد ومختصره .

وشرح التنبيه مطول ، سماه تحفة الطالب النبيه ، وصل فيه إلى أثناء الصلاة .

وشرح الوسيط ، المسمى بـ التنقيح قال الإسنوي : وصل فيه إلى شروط الصلاة . قال : وهو كتاب جليل ، من أواخر ما صنف ، جعله مشتملاً على أنواع متعلقة به ضرورية ، كافية لمن يريد كثرة المسائل المأخوذة والمرور على الفقه كله في زمن قليل ، لتصحيح مسائله ، وتوضيح أدلته ، وذكر أغاليطه ، وحل إشكالاته وتخريج أحاديثه ، وأحوال الفقهاء المذكورين فيه ، إلى غير ذلك من الأنواع التي أكثر منها ولم يتعرض فيه لفروع الوسيط ، قال وهي طريقة يتيسر معها اقراء الوسيط في كل عام مرة .

ونكت على الوسيط ، في نحو مجلدين .

والتحقيق ، وصل فيه إلى صلاة المسافر ، ذكر فيه غالب ما في شرح المهذب من الأحكام والخلاف ، على سبيل الاختصار .

ومهمات الأحكام ، قال الإسنوي : وهو قريب من التحقيق من كثرة الأحكام إلا أنه لم يذكر فيه خلافاً ، وقد وصل فيه إلى أثناء طهارة الثوب والبدن .

وشرح البخاري ، كتب منه مجلدة .

والعمدة في تصحيح التنبيه .

والتحرير في لغات التنبيه .

ونكت المهذب .

ومختصر التذنيب للرافعي ، سماه المنتخب قال الإسنوي : وقد أسقط من آخر الفصل السادس أوراقاً ، فلم يختصرها ، ومن هنا تعلم أن قول من قال : إن الشيخ محيي الدين لم يعلم بالشرح الصغير ، وهم ، فإن الرافعي ذكره في خطبة التذنيب ، وقد وقف عليه النووي ، نعم ، قول من قال لم يقف عليه ممكن .

ودقائق الروضة ، كتب منها إلى أثناء الاذان .

وطبقات الشافعية ، مجلد ، قال الإسنوي : ومات عنها مسودة ، فبيضها المزي .

ومختصر الترمذي ، مجلد وقفت عليه بخطه مسودة ، وبيض منه أوراقاً .

وقسمة الغنائم ، ومختصره ، قال الإسنوي : وهذا الكتاب من أواخر ما صنف ، وهو مشتمل على نفائس .

وجزء في الاستسقاء .

وجزء في القيام لأهل الفضل . قال الإسنوي : وهما من أواخر تصانيفه وأمتعها .

ومختصر تأليف الدارمي في المتحيرة .

ومختصر تصنيف أبي شامة في البسملة .

ومناقب الشافعي .

وهذه الكتب الثلاثة أحال عليها هو في شرح المهذب .

والتقريب في علوم الحديث .

والارشاد فيه .

والخلاصة في الحديث .

ومختصر مبهمات الخطيب .

والاملاء على حديث : إنما الأعمال بالنيات ، لم يتمه .

وشرح سنن أبي داود ، كتب منه يسيرا .

وبستان العارفين .

ورؤوس المسائل ، والأصول والضوابط ، كتب منه أوراقاً .

ومختصر التنبيه ، كتب منه ورقة واحدة .

والمسائل المنثورة ، وهي المعروفة بالفتاوى ، وضعها غير مرتبة فرتبها تلميذه ابن العطار ، وزاد عليها أشياء سمعها منه .

والأربعين ، وشرح ألفاظها .

هذا ما يحضرني من مصنفاته بعد الفحص . وقد قال في شرح المهذب في رفع اليدين في الركوع : أرجو أن أجمع فيه كتاباً مستقلاً ، فلا أدري أفعل أو لا ؟

قال الإسنوي : وينسب له تصنيفان ، ليسا له ، النهاية في اختصار الغاية والثاني : أغاليط على الوسيط ، مشتملة على خمسين موضعاً ، بعضها فقهية ، وبعضها حديثية . وممن نسب له هذا ابن الرفعة في المطلب ، فاحذره ، فإنه لبعض الحمويين ، ولهذا لم يذكره ابن العطار حين عدد تصانيفه واستوعبها ، انتهى .

وقوله : إن ابن العطار استوعب تصانيفه ممنوع ، بل لم يستوعب ولا قارب .

قال ابن العطار : وله شرح ألفاظ ، ومسودات كثيرة ، ولقد أمرني مرة بجمع نحو ألف كراس بخطه ، وأمرني أن أقف على غسلها في الوراقة ، وخوفني ان خالفته في ذلك ، فما أمكنني إلا طاعته وإلى الآن في قلبي منها حسرات .

ذكر شيء من مكاتباته :

قال ابن العطار : كتب ورقة إلى الملك الظاهر تتضمن العدل في الرعية وإزالة المكوس ، وكتب معه فيها جماعة ، ووضعها في ورقة كتبها إلى الأمير بدر الدين بيلبك الخزندار بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان ، وصورتها .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله يحيى النووي ، سلام الله تعالى ورحمته وبركاته على المولى الحسن ، ملك الأمراء بدر الدين ، أدام الله الكريم له الخيرات ، وتولاه بالحسنات ، وبلغه من أقصى الآخرة والأولى كل آماله ، وبارك له في جميع أحواله ، آمين .

وينهى إلى العلوم الشريفة أن أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيش ، وضعف حال ، بسبب قلة الأمطار ، وغلاء الأسعار ، وقلة الغلات والنبات ، وهلاك المواشي ، وغير ذلك ، وأنتم تعلمون أنه يجب الشفقة على الرعية ، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم ، فإن الدين النصيحة . وقد كتب خدمة الشرع الناصحون للسلطان ، المحبون له ، كتاباً يذكره النظر في أحوال الرعية والرفق بهم ، وليس فيه ضرر ، بل هو نصيحة محضة ، وشفقة ، وذكرى لأولي الألباب .

والمسؤول من الأمير ـ أيده الله تعالى ـ تقديمه إلى السلطان أدام الله له الخيرات ، ويتكلم عنده من الإشارة بالرفق بالرعية بما يجده مدخراً له عند الله تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها

وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾ .

وهـذا الكتاب أرسله العلمـاء أمانـة ونصيحة للسلطان ، أعـز الله أنصـاره ، والمسلمين كلهم في الدنيا والآخرة فيجب عليكم إيصاله للسلطان أعز الله أنصاره ، وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة ، ولا عذر لكم في التأخر عنها ولا حجـة لكم في التقصير فيها عند الله تعالى ، وتسـألون عنها يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه ، وأنتم بحمد الله تحبون الخير وتحرصون عليه ، وتسارعون إليه ، وهذا من أهم الخيرات ، وأفضل الطاعات ، وقد اهلتم له وساقه الله إليكم ، وهو فضل من الله ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدة ، إن لم يحصل النظر في الرفق بهم ، قال الله تعالى : **﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾** ، وقال تعالى : **﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾** .

والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا ، فإذا فعلتموه فأجركم عند الله **﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾** والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فلما وصلت الورقتان إليه ، أوقف عليهما السلطان ، فرد جوابهما رداً عنيفـاً مؤلماً ، فتنكدت خواطر الجماعة الكاتبين ، فكتب ـ رضي الله عنه ـ جواباً لـذلك الجواب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد من عبد الله يحيى النووي ، ينهي أن خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره ، فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد ، وفهمنا منه أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع ، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحكام عند الحاجة إليها ، فقال تعالى : **﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾** فوجب علينا حينئذٍ بيانه، وحرم علينا السكوت وقال تعالى : **﴿ ليس على الضعفاء ولا المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾** . وذكر في الجواب أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد ، وهذا أمر لم ندعه ، ولكن الجهاد فرض كفاية ، فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم اخباز معلومة من بيت المال ، كما هـو

الواقع ، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزراعة والصنائع وغيرها ، مما يحتاج الناس كلهم إليها ، فجهاد الأجناد مقابل بالاخباز المقدرة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع ، أو غير ذلك . وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ متفقون على هذا ، وبيت المال بحمد الله تعالى معمور ، زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة ، في حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة والتوفيق والتسديد ، والظهور على أعداء الدين ، وما النصر إلا من عند الله ، وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى ، واتباع آثار النبي ﷺ ، وملازمة أحكام الشرع . وجميع ما كتبناه أولاً وثانياً ، هو النصيحة التي نعتقدها وندين الله بها ، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه ، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية ، وليس فيها ما يلام عليه ، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق النبي ﷺ في الرفق بالرعية ، والشفقة عليهم ، وإكرامه لآثار النبي ﷺ . وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذي كتبناه .

وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا في البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن بطغاة الكفار ؟ وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟

وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأي حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ؟ وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإني أعتقد أن هذا واجب علي وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ، ﴿إنما هذه الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾ وأفوض أمري إلى الله ، ان الله بصير بالعباد وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول بالحق حيثما كنا ، وأن لا نخاف في الله لومة لائم ، ونحن نحب للسلطان أكمل الأحوال ، وما ينفعه في آخرته ودنياه ، ويكون سبباً لدوام الخيرات له ، ويبقى ذكره على ممر الأيام ، ويخلد به في الجنة ، ويجد نفعه ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ .

وأما ما ذكر من تمهيد السلطان البلاد ، وإدامة الجهاد ، وفتح الحصون ، وقهر الأعداء ، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة وطارت في أقطار الأرض ، فلله الحمد ، وثواب ذلك مدخر للسلطان إلى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ ، ولا حجة لنا عند الله تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا . وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وكتب للملك الظاهر لما احتيط على أملاك دمشق :

بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾ وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ ونصيحة عامة المسلمين ، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : الدين النصيحة لله وكتابه وأئمة الدين وعامتهم . ومن نصيحة السلطان ـ وفقه الله تعالى لطاعته وتولاه بكرامته ـ أن ننهي إليه الأحكام ، إذا جرت على غير قواعد الإسلام ، وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية ، والاهتمام بالضعفة ، وإزالة الضرر عنهم . قال الله تعالى : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ . وفي الحديث الصحيح : « إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » . وقال ﷺ : « من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ، وقال ﷺ : « من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم ، فارفق اللهم به ، ومن شق عليهم فاشقق اللهم عليه » . وقال ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » . وقال ﷺ : « إن المقسطين على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » .

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان ، أعزه الله وأعز أنصاره ، وأذل له الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة ، في المدة اليسيرة ، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين ، وسائر الماردين ، ومهد له البلاد والعباد ، وقمع بسيفه أهل الزيغ والفساد ، وأمده بالاعانة واللطف والسعادة ، فلله الحمد على هذه النعم الظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامها له

وللمسلمين ، وزيادتها في خير وعافية ، آمين .

وقد أوجب الله شكر نعمه ، ووعد الزيادة للشاكرين ، فقال تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ . وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها ، وطلب منهم إثبات لا يلزمهم ، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين بل من في يده شيء فهو ملكه ، لا يحل الاعتراض عليه ، ولا يكلف بإثبات .

وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يجب العمل بالشرع فيوصي نوابه فهو أول من عمل به ، والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة ، والافراج عن جميعهم ، فأطلقهم أطلقك الله من كل مكروه ، فهم ضعفة ، وفيهم الأيتام والأرامل ، والمساكين والضعفة ، والصالحون ، وبهم تنصر وتغاث وترزق ، وهم سكان الشام المبارك ، جيران الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم ، فلهم حرمات من جهات . ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم وأطلقهم في الحال ولم يؤخرهم ولكن لا تنهى إليه الأمور على جهتها . فبالله أغث المسلمين يغثك الله ، وارفق بهم يرفق الله بك ، وعجل لهم الافراج قبل وقوع الأمطار وتلف غلاتهم ، فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم ، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء ، وقد نهبت كتبهم .

وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته ، ونصره على أعدائه ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ . ويتوفر له من رعيته الدعوات ، وتظهر في الحديث عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

واسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يذكر بها إلى يوم القيامة ، ويحميه من السنن السيئة . فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه فيها القبول . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب إليه لما رسم ، بأن الفقيه لا يكون منزلاً في أكثر من مدرسة واحدة :

بسم الله الرحمن الرحيم . خدمة الشرع ينهون أن الله أمرنا بالتعاون على البر والتقوى ، ونصيحة ولاة الأمور وعامة المسلمين ، وأخذ على العلماء العهد بتبليغ أحكام الدين ، ومناصحة المسلمين ، وحث على تعظيم حرماته ، وإعظام شعائر الدين ، وإكرام العلماء واتباعهم .

وقد بلغ الفقهاء أنه رسم في حقهم بأن يغيروا عن وظائفهم ، ويقطعوا عن بعض مدارسهم ، فتنكدت بذلك أحوالهم ، وتضرروا بهذا التضييق عليهم ، وهم محتاجون ولهم عيال ، وفيهم الصالحون والمشتغلون بالعلوم ، وإن كان فيهم أفراد لا يلتحقون بمراتب غيرهم ، فهم منتسبون إلى العلم ومشاركون فيه ، ولا يخفى مراتب أهل العلم وفضلهم ، وثناء الله عليهم وبيانه مرتبتهم على غيرهم ، وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله عليهم ، فإن الملائكة عليهم السلام تضع أجنحتها لهم ويستغفر لهم كل شيء ، حتى الحوت في الماء .

واللائق بالجناب العالي إكرام هذه الطائفة ، والاحسان إليهم ومعاضدتهم ، ورفع المكروهات عنهم ، والنظر في أحوالهم بما فيه من الرفق بهم ، فقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به » وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أنه كان يقول لطلبة العلم : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ قال : «إن رجالاً يأتونكم يتفقهون ، فاستوصوا بهم خيراً» والمسؤول أن لا يغير هذه الطائفة شيء ، وتستجلب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة . وقد ثبت في صحيح البخاري ، أن رسول الله ﷺ قال : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك ، حين أنكر عليه السلطان صرفه الأموال الكثيرة في جهة طلب العلم ، فقال : أقمت لك بها جنداً لا ترد سهامه بالاسحار . فاستصوب فعله وساعده عليه . والله الكريم يوفق الجناب دائماً لمرضاته والمسارعة إلى طاعته ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ذكر وفاته رحمه الله :

قال ابن العطار : كان الشيخ لا يأخذ من أحد شيئاً إلا ممن تحقق دينه

ومعرفته ، ولا له به علقة من اقراء أو انتفاع به .

قال : وكنت جالساً بين يديه ، قبل انتقاله بشهرين ، وإذا بفقير قد دخل عليه ، وقال : الشيخ فلان من بلاد صرخد يسلم عليك ، وأرسل هذا الإبريق لك ، فقبله ، وأمرني بوضعه في بيت حوائجه ، فتعجبت منه لقبوله ، فشعر بتعجبي ، فقال : أرسل إليّ بعض الفقراء زربولاً ، وهذا إبريق ، فهذه آلة السفر .

قال الذهبي : وعزم عليه شخص في رمضان ليفطر عنده فقال : احضر طعامك هنا نفطر جملة .

قال ابن العطار : ثم بعد أيام يسيرة كنت عنده ، فقال لي : قد أذن لي في السفر ، فقلت : كيف أذن لك ؟ قال : أنا جالس ها هنا يعني بيته بالمدرسة الرواحية ، وقدامه طاقة مشرفة عليها مستقبل القبلة ، إذ مر عليّ شخص في الهواء ، من هنا ، ومن كذا يشير من غربي المدرسة إلى شرقيها ـ وقال : قم ، سافر إلى بيت المقدس .

ثم قال : قم حتى نودع أصحابنا وأحبابنا ، فخرجت معه إلى القبور التي دفن فيها بعض شيوخه ، فزارهم وبكى ، ثم زار أصحابه الأحياء ، ثم سافر صبيحة ذلك اليوم .

قال : وجرى لي معه وقائع ، ورأيت منه أموراً تحتمل مجلدات . فسار إلى نوى ، وزار القدس ، والخليل عليه السلام ، ثم عاد إلى نوى ، ومرض بها في بيت والده ، فبلغني مرضه ، فذهبت من دمشق لعيادته ، ففرح بي وقال : ارجع إلى أهلك ، وودعته وقد أشرف على العافية ، يوم السبت العشرين من رجب ، سنة ست وسبعين وستمائة ، ثم توفي ليلة الأربعاء ، الرابع والعشرين من رجب ، ودفن صبيحتها بنوى .

قال : فبينا أنا نائم تلك الليلة ، إذ مناد ينادي بجامع دمشق : الصلاة على الشيخ ركن الدين الموقع ، فساح الناس لذلك ، فاستيقظت ، فبلغنا ليلة الجمعة موته ، وصلي عليه بجامع دمشق ، وتأسف المسلمون عليه تأسفاً بليغاً ، الخاص والعام والمادح والذام .

ورأيت في تاريخ الذهبي ، أن بعض الصالحين الكبار قتل الشيخ بالحال لأمر ، ثم ندم على ذلك ، وأنه قال لوالده : اتحب أن يموت عندكم أو في دمشق ؟ فقال : عندنا . قلت : فهو رضي الله عنه شهيد ، جمع بين مرتبتي العلم والشهادة ، نفعنا الله به .

قال ابن العطار : وذكر لي جماعة من أقاربه ، أنهم سألوه أن لا ينساهم في عرصات القيامة ، فقال لهم : إن كان ثم جاه والله لا دخلت الجنة وأحد ممن أعرفه ورائي ، ولا أدخلها إلا بعدهم .

ولما دفن أراد أهله أن يبنوا عليه قبة ، فجاء في النوم إلى عمته وقال لها : قولي لأخي أو للجماعة ، لا يفعلوا هذا الذي عزموا من البنيان ، فانهم كلما بنوا شيئاً ينهدم ، فامتنعوا ، وحوطوا على قبره بحجارة .

وقال ابن فضل الله : حكى لنا أخوه الشيخ عبد الرحمن ، أنه لما مرض مرض موته ، اشتهى التفاح ، فجيء به فلم يأكله ، فلما مات رآه بعض أهله فقال : ما فعل الله بك ؟ فقال : أكرم نزلي ، وتقبل عملي ، وأول قراي جاءني التفاح .

وأخبرني بعض الطلبة أن شخصاً جاء إلى قبره وجعل يقول : أنت الذي تخالف الرافعي وتقول : قلت . . قلت ، ويشير إليه بيده ، فما قام حتى لدغته فيها عقرب .

ورأيت في « إنباه الغمر » لشيخ الإسلام ابن حجر في ترجمة الجمال الريمي شارح التنبيه أنه كان كثير الازدراء ، بالشيخ محيي الدين فلما مات جاءت هرة وهو على المغتسل ، فانتزعت لسانه قال : فكان ذلك عبرة للناس .

ذكر شيء مما رُثي به :

قال الشيخ العلامة شيخ الأدب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أبي شاكر الحنفي الاربلي :

عز العزاء، وعم الحادث الجلل ... وخاب بالموت في تعميرك الأمل
واستوحشت بعدما كنت الأنيس بها ... وساءها فقدك: الأسحار والأصل
أسلى قوامك عن قوم مضوا بدلا ... وعن قوامك لا مثل ولا بدل
فمثل فقدك ترتاع العقول به ... وفقد مثلك جرح ليس يندمل

وكنت تتلو كتاب الله معتبراً ... لا يعتريك على تكراره ملل
قد كنت للدين نوراً يستضاء به ... مسدد منك فيه القول والعمل
وكنت في سنة المختار مجتهداً ... وأنت بالمن والتوفيق مشتمل
وكنت زيناً لأهل العلم مفتخراً ... على جديد كساهم ثوبك السمل
زهدت في باطل الدنيا وزخرفها ... عزماً وحزماً، فمضروب بك المثل
أعرضت عنها احتقاراً غير محتفل ... وأنت بالسعي في أخراك محتفل
عزفت عن شهوات ما لعزم فتى ... بها - سواك - إذا عنت له قبل
أسهرت في العلم عيناً لم تذق سنة ... إلا وأنت به في الحلم مشتغل
ترى ذرى تربة من غيبوه به ... أو نعشه من على أعواده حملوا
يا محيي الدين، كم غادرت من كبد ... حرى عليك، وعين دمعها هطل
وكم مقام كحد السيف، لا جلد ... يقوى على صولة فيه ولا جدل
أمرت فيه بأمر الله منتضياً ... سيفاً من العزم لم يصفع له خلل
وكم تواضعت عن فضل، وعن شرف ... وهمة هامة الجوزاء تنتعل
فجعت بالأمس ليلاً كنت ساهره ... لله، والنوم قد خيطت به المقل
رجاك نور نهار كنت صائمه ... إذا الهجير بنار الشمس تشتعل

* * *

يا لاهيا لاهيا عن هول مصرعه ... وضاحك السن منه يضحك الأجل
لا تخل نفسك من زاد، فإنك من ... حين الولاد مع الأنفاس مرتحل
وما مقام يديم اليسر يتبعه ... إلى محل تلاة سابق عجل

وقال أيضاً :

نبأ أصم به واصمى الناعي ... فجنى على الأبصار والأسماع
غدت النفوس به شعاعاً إذ بدت ... شمس الضحى حزناً بغير شعاع
أودى بها خوف التفرق قبله ... ما أشبه الأوجال بالأوجاع
حل المصاب برب كل فضيلة ... وبباب كل ثنية طلاع
هاد إلى السنن القويم وسنة الـ ... هادي جميل مناقب ومساع
يحيى الذي أحيا الفضائل سعيه ... وهدى ببارق ذهنه اللماع
القانت، القوام، والصوام، والسـ ... ـاعي بخطو في العلوم وساع

ما زال أوحد عصره في دهره وإلى سبيل الحق أفضل داع
حبر جليل، جل في تأبينه عن رتبة الاشعار والاسجاع

وقال قاضي القضاة نجم الدين أحمد بن محمد بن سالم بن الحسن بن صصرى :

أعيني جودا بالدموع الهواطل وجودا بها كالساريات الهواطل
على الشيخ محيي الدين ذي الفضل والتقى ورب الهدى والزهد، حاوي الفضائل
على قانت، بر، طهور، موفق على عالم بالنسك والدين عامل
وسيلا دماً، فالدمع ليس بناقع غليلي، ولا مطف أوام مفاصلي
لقد كان فرداً في الزمان مكفلا عديم نظير أو شبيه مساجل
لقد كان عن دين الاله مناضلا فأكرم به من دين ومناضل
لقد كان في الدنيا الدنية زاهداً فلم يله منها قط يوماً بطائل
لقد كان في الأخرى العلية جاهداً فنوله منها رب أشرف نائل
لقد كان بالمعروف للناس آمراً وناهيهم عن منكرات وباطل
فكم قام في الإسلام حق قيامه وما عاقه عن قصده عذل عاذل
وكم لذوي الجاهات واجه معلناً بانكاره عند الضحى والاصائل
وكم بالهدى والحق شافه منكراً إذا لم يكن يصغي لأقوال قائل
فإن هو عن رؤياه أصبح عاجزاً يبلغه إنكاره في الرسائل

وقال الشيخ أبو الحسن علي بن المظفر بن إبراهيم الكندي :

لهفي عليه سيداً وحصورا سنداً لأعلام الهدى، وظهيرا
ومجاهداً ومجاهراً في الله لا يخشى مليكاً قاهراً، وأميرا
ومشيداً ركن الشريعة، ناصحاً، بالباقيات الصالحات مشيرا
ما ان يبالي راح معذولا، إذا نصح الورى لله، أو معذورا
عف عن الدنيا، وكم عرضت له جلا، فأولاها قلى ونفورا
لم يصبح الورق المزخرف رائقاً يوماً لديه، ولا النضار نضيرا
هجر الكرى والطيبات تورعاً، إذ قام ديجوراً، وصام هجيرا
أحيى شريعة أحمد، وأفاضها فأفادنا نشراً لها ونشروا

يفتي ، فيفتن كل حبر علمه ... مع أنه يهدي الهدى والنورا
ما مات يحيى، إنما جبل هوى ... فأخاف ذلك يذبلا وثبيرا
إن المدارس وحشة لفراقه ... أضحت دوارس لا تبين، دثورا
وكذا المساجد بالمصابيح انثنت ... تبدي عليه حرقة وزفيرا
تلك الزوايا والثياب الخشن قد ... عادت عليه جنة وحريرا
آها على الاواه والاواب من ... صدق المقال لنفسه، هجيرا
والظاهر الأعراض والأغراض لا ... يبدي رياء للانام وزورا
وزر به عند الحوادث تتقى ... عند الملوك به الورى المحذورا
ضمت نوى الجولان من أخلاقه ... نوراً إذا ظن السحاب غديرا
وتقدست بقدومه من قدسه ... فيها قبورك طاهراً وطهورا

وقال أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مصعب ، قال ابن فضل الله ـ وكان قرأ عليه قطعة من الروضة :

أأكتم حزني والمدامع تبديه ... لفقد امرىء كل البرية تبكيه
رأى الناس منه زهد يحيى سميه ... وتقواه، فيما كان يبدي ويخفيه
ولم يرض بالدنيا، ولا مال لحظة ... إلى عيشها، فالله لا شك يرضيه
تحلى بأوصاف النبي وصحبه ... وأتباعه هدياً فمن ذا يدانيه ؟
حديث رسول الله والفقه دأبه ... يصنفه في ذا، وهذاك يرويه
يرى الموت يحيى في اماتة بدعة ... وكم سنة أحيى بحسن مساعيه
شكا فقده علم الحديث وحفظه ... وأهلوه، والكتب الصحاح، وقاريه
ولاح على وجه العلوم كآبة ... تخبر أن الدين قد مات محييه
إذا عدم الإسلام أشرف أهله ... فلا غرو أنا في المصاب نعزيه

وقال الفقيه سليمان بن أبي الحارث الأنصاري الحنفي :

مصاب أصاب القلب للجفن أرقا ... وخطب أتى بالحزن للصبر فرقا
ورزء تغشى المسلمين بأسرهم ... وسهم إلى عين الشريعة فوقا
ولم يعد قلب الشافعية فضله ... وإن كان قد عم الطوائف مطلقا
وضاق الفضاء الرحب، حتى لقد غدا ... كسم خياط، أو من السم أضيقا

بمن كان حلياً للزمان وأهله ... وعقد نظام العلم والحلم والتقى
إذا ما اقتضاه الشرع من أجل حادث ... فرى هامة الخطب الجسيم، وفرقا
فأصبحت الأقطار والكون كله ... لفقدك محيي الدين بيداً سملقا
فأرثيك لا أني ظننتك ميتا ... وكيف وإحياء العلوم هو البقا
أبا زكريا ليس للمرء ملجأ ... يرد الردى عنه، ولو جر فيلقا
أيحيى لو أن الموت يثنيه عن فتى ... ثبات جنان، لانثنى عنه أخرقا
وما مد صرف الدهر نحوك باعه ... ولا ضم جنبيك الصفيح مطبقا
وكيف يواري المرء علماً غدا به ... على سعة ـ صدر البسيطة ضيقا
فطوبى لقبر ضمه، فلقد غدا ... يباهي به دار المقامة والبقا

وقال الفقيه أبو عبد الله محمد المنبجي ، أحد فقهاء الناصرية بدمشق :

سبل العلوم تقطعت أسبابها ... وتعطلت من حليها طلابها
لمصيبة عز العزاء لها، كما ... في الناس قد جلت وجل مصابها
يا أيها الحبر الذي من بعده ... كل الفضائل غلقت أبوابها
أضحى على الدنيا لفقدك وحشة ... ما اعتادها من قبل ذا أربابها
مسودة أيامها، متغير ... أحوالها، مستوحش محرابها
لله أي بحار فضل غيضت ... من بعد ما زخرت، وعب عبابها
من للمسائل اعضلت؟ من للفتا ... وى أشكلت عن أن يرد جوابها؟
من للتقى ؟ من للحيا ؟ من للحجى ... طويت ـ لفقد أليفها ـ أثوابها

وقال أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبد الله ، الكاتب ، قارىء دار الحديث ، من قصيدة يرثي بها أشياخه ، بعد ذكر ابن الصلاح ، والسخاوي ، وأبي شامة ، وغيرهم .

وكذاك محيي الدين فاق بزهده ... وبفقهه الفقها مع الزهاد
القانت الأواب، والحبر الذي ... نصر الشريعة دائماً بجهاد
تبكيه دار للحديث وأهلها ... لخلوها من فضله المعتاد
لم يبق بعدك للصحيح معرف ... قد كنت فيه جهبذ النقاد
من ذا يبين مسنداً من مرسل ... أو من حديث عد في الافراد

أو كان مقطوعاً ضعيفاً معضلا ... أو كان موضوعاً لذي الحساد
أو من يبين منكراً في متنه ... أو من يعرف علة الاسناد؟
من ذا لرفع المنكرات وقد غدت ... بين الانام كثيرة الترداد؟
ونصرت دين الله وحدك جاهداً ... ودفعت عنه شبهة المراد

وقال العفيف التلمساني :

نعم بعد يحيى معهد الفضل دارس ... فما انصفت إن لم تنحه المدارس
فيا صبر متْ عندي، ويا حزن فلتعش ... فإن النواوي قد حوته الروامس
بكته مساعيه التي بذت الالى ... سعوا للعلى في أرضهم وهو جالس
وناحت عليه ورق أوراقه، وما ... لها من سوى الأقلام قصب بوائس
وأقسم ما نفس بكته نفيسة ... إذا لم تساعدها الدموع النفائس
تلهب قلب البرق، والرعد صارخ ... اسى، ودموع الغاديات بواجس
وظل وبات اللؤلؤ الرطب حاسداً ... مدامع فيه درها متجانس
ومثوى الربى فيه فقد حسد الثرى ... فماذا عسى فيه تقول المجالس
لقد كان يحيي الليل يحيى ساهدا ... وجفن سمير النجم في الأفق ناعس
ويطوي على الداء الدفين من الطوى ... اضالع ما فيها سوى الذكر هاجس
ويرضى جليس الخير ممتع بحثه ... فينقاد للحق المماري الممارس
فان تضحك الأخرى سروراً بمثله ... فوجهك يا دنيا من الفقد عابس
وكنت به مثل العروس فأصبحت ... لديه من الحور الحسان عرائس
فلله غصن عندما تم زهره ... وأينع: أضحى رطبه وهو يابس
وبدر تمام، والبدور متى تغب ... تراح، وهذا منه قلبي آيس
فأقسم ما النعمى بها القلب ناعم ... عليه ولا البؤسى بها القلب بائس
وهيهات لو اني صديق ومات لم ... اعش بعده لما حوته الروامس
فيا دهر هل كانت منا ياه اكؤساً ... ملئت بها سكراً، فرأسك ناكس؟
ويا كل يوم بعده صار ليلة ... أما تنجلي بالصبح عنك الحنادس؟
لقد اجفلت غر المسائل بعده ... وعهدي بها من قبل وهي أوانس
نطارد منهن الشرود كأنها ... مها تديرها بالقسي الفوارس
ولو أنه فينا لعدن وكنس الـ ... ـجواري لدينا، لا الظباء الكوانس

لـه فـي رسـول الله والآل اسـوة وأصحـابـه، عنهم تقـول الفـرادس
أبـوا أن يـؤوبـوا نحـو دنيـا دنيـة مـلابسـه تـعـرى بهـا وهـو لابس
وكـيـف نـبـكـيـه ونـعـلم أنـه على مـا إليـه صـار كـان يـنـافس

خاتمة الأولى :

روى الحاكم في المستدرك ، وأبو داود ، وغيرهما ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها .

قال الإمام أحمد : فكان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ، وعلى رأس الثانية الإمام الشافعي . قالوا : وعلى رأس الثالثة أبو العباس بن سريج ، وقيل : الأشعري ، والرابعة أبو الطيب سهل الصعلوكي ، وقيل الشيخ أبو حامد إمام العراقيين والسادسة الفخر الرازي ، وقيل : الرافعي ، والسابعة ابن دقيق العيد . وهكذا ذكره ابن السبكي في الطبقات .

قلت : وقد ذكر شيخ شيوخنا حافظ العصر زين الدين العراقي في ترجمة جمعها للشيخ جمال الدين الإسنوي ، أنه المبعوث على رأس المائة الثامنة . والشيخ محيي الدين أحق بأن يكون على رأس المائة السابعة ، بل هو أقرب إلى القرن من الإسنوي ، فإن وفاته ـ كما تقدم ـ سنة ٦٧٦ ، ووفاة الإسنوي سنة ٦٧٣ وفي ظني أن الشيخ زين الدين العراقي نقل في ترجمته المذكورة ، أن بعضهم ذكر ذلك في شأن النووي ، وأنه قاس الإسنوي عليه من حيث تأخر زمنه عن رأس القرن .

وقيل : إن المبعوث على رأس المائة الثامنة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني . وقد نظم فيمن تقدم أبيات مفرقة ، فقال بعضهم يخاطب ابن سريج .

اثنـان قـد مضيـا، فبـورك فيهـمـا عمـر الخليفـة، ثـم حلف السـودد
الـشـافـعي، الألـمـعي مـحـمـد ارث الـنـبـوة، وابـن عـم مـحـمـد
ابشـر أبـا العبـاس، أنـك ثـالث من بعـدهم، سقيـا لتـربـة أحمـد

وقال بعضهم مذيلاً :

والـرابـع المشهـور سهـل محمـد أضحى إمـامـاً عنـد كـل مـوحـد
يـأوي إليـه المسلمـون بـأسـرهـم في العلم إن جـاؤوا لخـطب مؤيـد

لا زلت فيما بيننا خير الورى ... للمذهب المختار خير مجدد

وقال الشيخ تاج الدين السبكي مذيلاً :

ويقال: إن الأشعري الثالث الـ ... ـمبعوث للدين القويم الأيد
والحق ليس بمنكر هذا، ولا ... هذا وعلهما أمران فعدد
هذا لنصرة أصل دين محمد ... كنظير ذلك في فروع محمد
وضرورة الإسلام داعية إلى ... هذا وذاك ليهتدي من يهتدي
وقضى أناس أن أحمد الاسفرا ... يبني رابعهم، ولا تستبعد
فكلاهما فرد الورى المعدود من ... حزب الإمام الشافعي محمد
الخامس الحبر الإمام محمد ... هو حجة الإسلام دون تردد
وابن الخطيب السادس المبعوث إذ ... هو للشريعة كان أي مؤيد
والسابع ابن دقيق عيد فاستمع ... فالقوم بين محمد أو أحمد
وانظر لسر الله أن الكل من ... أصحابنا، فافهم، وانصف ترشد
هذا على أن المصيب أمامنا ... أجلى دليل واضح للمهتدي
يا أيها الرجل المريد نجابة ... دع ذا التعصب والمراء، وقلد
هذا ابن عم المصطفى وسميه ... والعالم المبعوث، خير مجدد
وضح الهدى بكلامه وبهديه ... يا أيها المسكين لم لا تقتدي ؟

وقلت أنا مذيلاً :

ويقال: إن السادس الشيخ الامام ... م الرافعي، وليس بالمستبعد
فهو المجدد للفروع وذلك الـ ... ـمحيي حقيقاً أصل دين محمد
والسابع الشيخ النواوي الذي ... قد حرر الدين الرضى للمقتدي
والثامن الشيخ الجمال الاسنو ... ي منقح الأحكام للمسترشد
والعالم الأسمى سراج الدين ذو ... بلقينة، نقلوا، ولا تستبعد
فكلاهما شيخ لذاك العصر قد ... كانا لأهل الدين أفضل مرشد
والحق أن البعث لا ... يختص فرداً عنده عن مفرد
بل كل حبر كان موجوداً فهو ... ما قد أراد به حديث المرشد
ودليله أن الغموس لمن يرى ... فمفادها للجمع أظهر فاهتد

الثانية : في سلسلة الفقه للشيخ

قال الشيخ في تهذيب الأسماء واللغات : هذا من المطلوبات المهمات ، والنفائس الجليلات ، التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها ، ويقبح بهما جهالتها ، فإن شيوخه في العلم آباء له في الدين ، ووصلة بينه وبين رب العالمين . وكيف لا يقبح جهله الأنساب والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب ، مع أنه مأمور بالدعاء لهم ، وبرهم ، وذكر مآثرهم ، والثناء عليهم ، وشكرهم فأذكرهم مني إلى رسول الله ﷺ وحينئذٍ يعرف من كان في عصرنا وبعده طريقة ، باجتماعها هي وطريقي قريباً .

قال : فأما أنا فأخذت الفقه قراءة وتصحيحاً ، وسماعاً ، وشرحاً وتعليقاً ، عن جماعات :

أولهم : شيخي الإمام أبو إبراهيم إسحاق بن أحمد المغربي .
ثم شيخنا : عبد الرحمن بن نوح المقدسي .
ثم شيخنا : أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربعي الاربلي .
ثم شيخنا : أبو الحسن سلار بن الحسن الاربلي .

وتفقه شيوخنا الثلاثة الأولون على الإمام أبي عمرو بن الصلاح ، وتفقه هو على والده في طريق العراقيين على أبي سعد بن أبي عصرون ، وأبو سعد على أبي علي الفارقي ، والفارقي على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ، والشيخ على القاضي أبي الطيب الطبري ، والقاضي على أبي الحسين الماسرجي ، وهو على أبي إسحاق المروزي ، وهو على أبي العباس بن سريج ، وهو على أبي القاسم الأنماطي ، وهو على المزني ، وهو على الشافعي ، وهو على مالك ، وهو على ربيعة ، ونافع ، وهما على ابن عمر عن النبي ﷺ .

قال : وأما طريق الخراسانيين فأخذتها عن شيوخنا المذكورين عن ابن الصلاح ، عن والده ، عن أبي القاسم بن البزري ، عن الكيال ، عن أبي المعالي إمام الحرمين ، عن والده ، عن أبي بكر عبد الله بن أحمد القفال الصغير ، عن أبي زيد المروزي ، عن أبي إسحاق المروزي ، عن ابن سريج بسنده السابق .

قال : وتفقه شيخنا سلار على الإمام أبي بكر الماهاني ، وهو عن ابن البزري بطريقه السابق .

قلت : وأنا أخذت الفقه عن جماعة أجلهم : شيخنا قاضي القضاة شيخ الإسلام علم الدين صالح البلقيني ، وهو عن جماعة أجلهم والده شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني ، وهو عن جماعة منهم الشيخ شمس الدين بن علان ، وهو عن الوجيه عبد الوهاب بن حسن البهنسي ، وهو عن البهاء الجميزي ، وهو عن ابن أبي عصرون بطريقه السابق ، فباعتبار طريقنا هذا كان شيخي أخذه عن النووي .

الثالثة : في نسبة الشيخ الحزامي

قال ابن العطار : ذكر لي الشيخ ـ قدس الله روحه ـ : ان بعض أجداده كان يزعم أنها نسبة إلى حكيم بن حزام . قال الشيخ : وهو غلط ، بل إلى حزام ، جد لنا نزل الجولان ، بقرية نوى ، على عادة العرب ، فأقام بها ، ورزقه الله ذرية ، إلى أن صار منهم خلق كثير .

الرابعة : نوى

وفيها يقول بعضهم :

لقيت خيراً يا نوى ... وكفيت من شر النوى
فلقد نشا بك عالم ... لله أخلص ما نوى
وعلى عداه فضله ... فضل الحبوب على النوى

والنسبة إليها نووي ، بحذف الألف بين الواوين على الأصل ، وقلب الألف الأصلية واواً . ويقال : نواوي ، بتخفيف الياء والألف بدلاً عن إحدى ياءي النسب ، كما يقال : يمني ويماني بتخفيف الياء في الثانية . ورأيت كلا الأمرين بخطه رحمه الله تعالى . ورأيت في تعليقة للقاضي عز الدين ابن جماعة بخطه . قال ابن العطار : لما ودعت الشيخ محيي الدين النووي بنوى حين أردت السفر للحج ، حملني السلام إلى الإمام أبي اليمن بن عساكر ، فلما بلغته سلامه ، رد علي وسألني : أين تركته ؟ قلت : ببلدة نوى ، فأنشدني بديهاً :

أمجمعين على نوى اشتاقكم ... شوقاً يجدد لي الصبابة والجوى

فأروم قربكم لأني مرتج يا سادتي قرب المقيم على نوى

الخامسة : والد الشيخ شرف

ذكره الصلاح الصفدي في تاريخه ، وقال : توفي[١] .

إسناد حديث الشيخ رحمه الله تعالى

أخبرني[١] شيخ الإسلام علم الدين البلقيني اجازة عن والده ، عن الحافظ أبي الحجاج المزي ، أخبرنا الإمام أبو زكريا النووي ، أخبرنا الإمام ابن قدامة المقدسي ، حدثنا أبو حفص بن طبرزد .

وكتب لي عالياً بدرجتين أبو عبد الله الحلبي ، عبد الصلاح بن أبي عمرو عن أبي الحسن بن البخاري ، أخبرنا ابن طبرزد ، أخبرنا أبو الفتح الكرخي ، أخبرنا أبو عامر الأزدي ، أخبرنا أبو محمد الجراحي ، أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، أخبرنا عبد الله بن أبي زياد ، أخبرنا سيار ، أخبرنا عبد الواحد بن زياد ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : لقيت إبراهيم حين أسري بي ، فقال : اقرىء امتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وان غراسها سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

قال الترمذي : حديث حسن :

قال الشيخ في التهذيب : قد منّ الله الكريم علينا ، ان جعل لنا رواية متصلة ، وسبباً متعلقاً ، بخليله إبراهيم ﷺ .

أخبرني أبو الفضل محمد بن عمر ، أخبرنا أبو إسحاق التنوخي ، أخبرنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي ، أخبرنا علي بن إبراهيم بن العطار ، أخبرنا يحيى بن شرف الفقيه ، أخبرنا خالد بن يوسف .

وكتب إلي عالياً بثلاث درجات ، أبو عبد الله الحلبي ، عن ابن الصلاح أبي عمرو ، عن أبي الحسن بن البخاري قالا : أخبرنا أبو اليمن الكندي ، أخبرنا

---

(١) بياض بالأصل .

المبارك بن الحسين ، أخبرنا علي بن أحمد ، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن ، أخبرنا عبد الله بن شيبان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : من طلب الشهادة صادقاً من قلبه أعطيها ولو لم تصبه . . أخرجه مسلم . وقد ختمنا بهذا الحديث كتابنا ، رجاء أن يختم الله لنا بالشهادة ، وأن يجعلنا من الذين لهم الحسنى وزيادة .

وهذا آخره والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم .

الإمام السيوطي

نسبه[1]

هو الإمام فخر المتأخرين ، علم أعلام الدين ، خاتمة الحفاظ أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي ، ولقب رحمه الله بجلال الدين .

وكنيته أبو الفضل : وكان سبب كنيته أنه عرض على العز الكناني الحنبلي فقال له ما كنيتك . قال : لا كنية لي . فقال : أبو الفضل .

وأما نسبه بالخضيري : فقد تحدث عنها رحمه الله في ترجمته لنفسه في حسن المحاضرة فقال : « وأما نسبتنا بالخضيري فلا أعلم ما تكون إليه هذه النسبة إلا الخضيرية محلة ببغداد » وقال أيضاً :

وقد حدثني من أثق به أنه سمع والدي رحمه الله تعالى يذكر أن جده الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة .

مولده

ولد رحمه الله بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة

---

(١) له ترجمة في كل من : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٣٥ ، الأعلام للزركلي جـ ٣ ص ٣٠١ ، تاريخ مصر لابن إياس جـ ٢ ص ٣٣٦ ، وشذرات الذهب لابن عماد جـ ٣ ص ٥١٨ ، الكواكب السائرة جـ ١ ص ٢٢٦ ، النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص ٥١ ، وبغداد والمحدثون في مصر والأزهر جـ ١ ص ٢٧٧ .

هجرية ، فقد ولد رحمه الله في بيت عرف بالعلم والأدب وسمو المكانة وعلو المنزلة ، ولا عجب فقد كان أبوه علماً من الأعلام وفقيهاً من فقهاء الشافعية المرموقين ، فقد ولي رحمه الله في مستهل حياته منصب القضاء في أسيوط ثم انتقل إلى مصر حيث أسند إليه بها منصب الإفتاء على مذهب الإمام الشافعي . وتوفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر وقد وصل من حفظ القرآن إذ ذاك إلى سورة التحريم ولكن الله تعالى قد كلأه بعنايته وأحاطه برعايته فقيض له العلامة الكمال ابن الهمام ، فكان رحمه الله يرعاه ويتابعه في تحفيظ القرآن وذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم .

نشأته

نشأ رحمه الله نشأة علمية منذ نعومة أظفاره ، فقد كان والده رحمه الله شديد الحرص على توجيهه الوجهة الصالحة إذ كان يحفظ القرآن الكريم في صغره ويستصحبه إلى دور العلم ومجالس القضاء ودروس الفقهاء وسماع الحديث .

ويذكر المؤرخون الذين ترجموا له رحمه الله أن أباه قد طلب من الشيخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني صاحب الفتح أن يدعو له بالبركة والتوفيق ، وكان رحمه الله يرى في الحافظ ابن حجر مثله الأعلى وكان يترسم خطاه ويحذو حذوه فيما بعد حتى قيل إنه شرب من ماء زمزم بنية أن يجعله الله مثل ابن حجر فاستجاب الله سبحانه وتعالى له فكان من أكبر الحفاظ .

طلبه للعلم

كان السيوطي رحمه الله شديد الذكاء ، قوي الذاكرة ، حفظ القرآن وهو دون ثماني سنين ثم حفظ عمدة الأحكام وشرحه لابن دقيق العيد ثم حفظ منهاج الإمام النووي في فقه الشافعية ثم منهاج البيضاوي في الأصول ثم ألفية ابن مالك في النحو ثم تفسير البيضاوي .

وعرض ذلك رحمه الله على طائفة من مشايخ الإسلام مثل البلقيني وعز الدين الحنبلي وشيخ الشيوخ الأقصراني فأجازه هؤلاء وغيرهم .

ولم يدع رحمه الله فرعاً من فروع المعرفة ولا نوعاً من أنواع العلم إلا وقد أدلى

فيه بدلو وتلقاه عند أهله ، فأخذ الفقه عن شيخ الشيوخ سراج الدين البلقيني وقد لازمه إلى أن توفي فلازم من بعده ولده علم الدين .

وأخذ الفرائض عن فرضيّ زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي ، ولازم الشرف المُناوي أبا زكريا محمد جد عبد الرؤوف شارح الجامع الصغير .

وأخذ العلوم العربية عن الإمام العلامة تقي الدين الشبليّ الحنفي وكتب له تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك .

ولزم العلامة محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة فأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني وأخذ عن جلال الدين المحلي وعن المعز الكناني أحمد بن إبراهيم الحنبلي ، وحضر على الشيخ سيف الدين الحنفي دروساً عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشية عليه وتلخيص المفتاح في البلاغة ، وقد أجيز بتدريس في مستهل سنة ست وستين وثمانمائة ، أي في سن الخامسة عشرة .

وأخذ أيضاً عن المجد بن السباع وعبد العزيز الوقائي الميقات ، وأخذ الطب عن محمد بن إبراهيم الدواني الرومي .

والمتتبع لنشأة السيوطي يجد أنه قد أخذ الكثير من العلوم عن الكثير من المشايخ . وقد ذكر بعض أهل العلم ممن ترجموا له أن شيوخه قد وصلوا نحو ستمائة ولا غرابة في ذلك ولا عجب فإن السيوطي قد عاش حياته يأخذ العلم حيث وجده وعن كل من يلقاه وأنه أكثر من السفر والترحال في سبيل تحصيل العلم ورواية الحديث . وذكر أيضاً في بعض الروايات أنهم مائة وخمسون شيخاً وشيخة وفي بعضها قارب عددهم الستمائة على ما ذكر آنفاً .

قيامه بالتدريس

كان الإمام السيوطي رحمه الله خير مؤدبي عصره وأفضل مدرسيه إذ اشتهر بالبراعة في الشرح والروعة في الإملاء ومن ثم شدت إليه الرحال من كل مكان فكان رحمه الله يدرس العربية في سن مبكرة إذ كان عمره وقت إجازته بالتدريس خمسة عشر عاماً فقط وهي مدة قصيرة من أعمار العلماء الأعلام ثم شرع أيضاً في تدريس الفقه وإملاء الحديث سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة أي بعد مباشرته تدريس العربية بنحو

ست سنوات ثم شرع بعد ذلك يزاول التدريس والإملاء في مختلف العلوم وشتى الفنون فقال متحدثاً عن نفسه متحدثاً بنعمة الله أنه رزق التبحر في سبعة علوم : التفسير والفقه والحديث والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة .

وكان رحمه الله يقول أيضاً إنه بلغ الاجتهاد إذ قال :

وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد وبحمد الله تعالى أقول ذلك متحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخر ، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوحها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله .

مصنفاته

لم يدع السيوطي فناً إلا وكتب فيه ، وبدأ في التأليف في سن مبكرة إذ ذكر المترجمون له أنه شرع في التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة هجرية وكان أول شيء ألفه في التفسير وهو « تفسير للاستعاذة والبسملة » وقد عرضه على شيخ الإسلام علم الدين البلقيني فأجازه وكتب له تقريظاً حسناً ، ثم توالى بعد ذلك تأليفه . وقد اختلف الباحثون في عدد المصنفات التي أثرى بها الحافظ الجلال السيوطي المكتبة الإسلامية فمنهم من يرى أنها تبلغ إحدى وستين وخمسمائة وهو ما ذهب إليه فلوجل وأما ما ذهب إليه بروكلمان فقد عدّ له خمسة عشر وأربعمائة كتاب .

ولقد حدثنا رجل فاضل أنه ألف كتاباً للحافظ السيوطي تكلم عنه وترجم له وعدّ مصنفاته حتى بلغت ستاً وألف كتاب وهذا إن دل إنما يدل على سعة تبحره كما ذكرنا .

وهنا أورد بعض مصنفات هذا الإمام الجليل .

فمن أهم تصانيفه على سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ الأخبار المروية في سبب وضع العربية .

٢ ـ الأشباه والنظائر في النحو .

٣ ـ الاقتراح في علم أصول النحو .

٤ ـ الألفاظ المعربة .
٥ ـ البهجة المرضية في شرح الألفية .
٦ ـ الفريدة . وهي ألفية وله شرح عليها .
٧ ـ التاج في إعراب شكل المنهاج .
٨ ـ المصاعد العلية في القواعد النحوية .
٩ ـ النكت على الألفية والكافية والشافية والشذور والنزهة .
١٠ ـ المزهر في علوم اللغة .
١١ ـ السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل .
١٢ ـ الشمعة المضيئة شرح كافية ابن مالك .
١٣ ـ تعريف الأعجم بحروف المعجم .
١٤ ـ جمع الجوامع في النحو .
١٥ ـ رفع السِّنة في نصب الزنة .
١٦ ـ شرح جمع الجوامع .
١٧ ـ شرح القصيدة الكافية في التعريف .
١٨ ـ شرح تصريف العزّى .
١٩ ـ شرح لمعة الأشراف في الاشتقاق .
٢٠ ـ شذا العرف في إثبات المعنى للحرف .
٢١ ـ شرح شواهد المغني .
٢٢ ـ شرح أبيات تلخيص المفتاح .
٢٣ ـ عقود الجمان في علم المعاني والبيان .
٢٤ ـ فجر الثمد في إعراب أكمل الحمد .
٢٥ ـ قطر الندى في ورود الهمزة للندى .
٢٦ ـ نكت على التلخيص يسمى الافصاح .
٢٧ ـ نكت على حاشية المطول .
٢٨ ـ نكت على شرح الشواهد للعيني .
٢٩ ـ نظم البديع في مدح خير شفيع .
٣٠ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور .

٣١ ـ تناسق الدرر في تناسب السور .
٣٢ ـ المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة .
٣٣ ـ إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأُمة .
٣٤ ـ الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج .
٣٥ ـ كشف الغطاء في شرح الموطأ .
٣٦ ـ تنوير الحوالك على موطأ مالك .
٣٧ ـ البدور السافرة عن أمور الآخرة .
٣٨ ـ نتيجة الفكر في الجهر بالذكر .
٣٩ ـ مسالك الحنفا في إسلام والدي المصطفى .
٤٠ ـ نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين .
٤١ ـ ذم القضاء .
٤٢ ـ ذم زيارة الأمراء .
٤٣ ـ التنفيس عن ترك الإفتاء والتدريس .
٤٤ ـ الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان .
٤٥ ـ طي اللسان عن ذم الطيلسان .
٤٦ ـ التضلع في معنى المتقنع .
٤٧ ـ عين الإصابة في ما استدركته عائشة على الصحابة .
٤٨ ـ الاحتفال بالأطفال .
٤٩ ـ الأوج في خبر عوج .
٥٠ ـ الوديك في الديك .
٥١ ـ الطرثوث في فوائد البرغوث .
٥٢ ـ مختصر النهاية لابن الأثير .
٥٣ ـ الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع .
٥٤ ـ مختصر الخادم .
٥٥ ـ شرح الروض لابن المقري .
وغير ذلك مما حوته كتب التراجم .

ثناء العلماء عليه

لم أجد أحداً ترجم لهذا الإمام إلا وقد شهد له بالبراعة والتبحر ، ولقد أثنى عليه شيوخه وأقرانه وتلاميذه والعلماء من بعده ممن قرأ كتبه . فيقول أبو الحسنات محمد محمد عبد الحلي اللكنوي في حواشيه على الموطأ بعد أن ذكر السيوطي : وتصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة وفرائد شريفة تشهد كلها بتبحره وسعة نظره ودقة فكره وأنه حقيق بأن يعد من مجددي الملة المحمدية في بدء المائة العاشرة وآخر التاسعة كما ادعاه بنفسه وشهد بكونه حفياً به ممن جاء بعده كعلي القارىء المكي في المرآة .

انقطاعه عن التدريس والقضاء والافتاء

انقطع الشيخ رحمه الله عن التدريس والافتاء لما بلغ أربعين سنة من عمره وأخذ في التجرد للعبادة والانقطاع لله تعالى والاشتغال به والاعراض عن الدنيا وأهلها كأنه لم يعرف أحداً منهم وشرع في تحرير مؤلفاته التي سبقت الاشارة إليها وألف رسالة يعتذر فيها عن ترك التدريس سماها « التنفيس في الاعتذار عمن ترك الافتاء والتدريس » .

وأقام رحمه الله في روضة المقياس فلم يتحول منها إلى أن مات .

وكان الأمراء والأغنياء إذ ذاك يأتون إلى زيارته ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها ، وفي ذات يوم من الأيام أرسل له السلطان الغوري خصياً وألف دينار ، فرد الألف وأخذ الخصي وأعتقه وجعله خادماً في الحجرة النبوية وقال لقاصده لا تعد تأتينا قط بهدية فإن الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك ، وقيل له مرة إن بعض الأولياء كان يتردد على الملوك والأمراء في حوائج الناس ، فقال أتباع السلف الصالح في عدم ترددهم أسلم لدين المسلم .

وقد طلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه وألّف كتاباً سماه « ما رواه الأساطين في عدم التردد إلى السلاطين » .

وفاته

توفي رضي الله عنه في سحر ليلة الجمعة تاسع جمادى الأولى سنة إحدى وعشرة

وتسعمائة في منزله بروضة المقياس عن عمر بلغ اثنين وستين عاماً وكان له مشهد عظيم ، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة ، وصلي عليه بدمشق بالجامع الأموي يوم الجمعة ، وقيل أخذ الناس قميصه وقبعته فاشترى بعض الناس قميصه من الناس بخمسة دنانير للتبرك به وباع قبعته بثلاثة دنانير لذلك أيضاً .

وقد رثاه عبد الباسط بن خليل الحنفي بقوله :

مات جلال الدين غيث الورى ... مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنة مهدي الهدى ... ومرشد الضال بنفع يعود
فيا عيون انهملي بعده ... ويا قلوب انفطري بالوقود
واظلمي يا دنيا إذ حق ذا ... بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق للضوء بأن ينطفي ... وحق للقائم فيك القعود
وحق للنور بأن يختفي ... وللیالي البيض أن تبقى سود
وحق للناس بأن يحزنوا ... بل حق أن كل بنفس يجود
وحق للأجيال خسرا وأن ... تطوى السماء طياً كيوم الوعود
وأن يفور الماء والأرض ان ... تميد وعم المصاب الوجود
مصيبة حلت فحلت بنا ... وأرثت نار اشتعال الكبود
صبرنا الله عليها وأولاده ... نعيماً حل دار الخلود

والله يقول الحق ويهدي السبيل

روضة الطالبين

للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي

المتوفى سنة ٦٧٦

ومعه

المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي

و

منتقى الينبوع

فيما زاد على الروضة من الفروع

للحافظ جلال الدين السيوطي

تحقيق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوض

الجزء الأول

دار عالم الكتب

للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

طبعة خاصة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

طبعت هذه الطبعة بموافقة خاصة من
دار الكتب العلمية

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت - هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان